

العلم

وأهميته في حياة الناس

يمثل العلم أهمية خاصة في حياة الناس، مؤمنهم وكافرهم، وتتمثل هذه الأهمية في احترام أهله وتقديرهم، وحب العلم والاعتراف بفضله، لما يلمسون من إيجابيات بوجوده، وسلبيات بفقدانه.. وهذا فضلا عن المذاق الخاص الذي يعرف طعمه طلاب العلم، ومحبوه والصابرون على المشاق في طلبه.

في هذه الوقفة نحاول أن نكشف عن بعض هذا السر بتعريف العلم، وعلاقته بالقراءة التي أضحت من أظهر سبل تحقيقه، وثماره التي تعود على الناس بالخير في جميع الأحوال

التهامي مجوري

مدخل

العلم يقف عند معرفة ما يتكون منه الشيء، ولا شأن له بما وراء ذلك، وهو المقصود بقولهم "معرفة الشيء بما هو به".

والجانب الوظيفي في الفكر الإسلامي، وكل فكر منتج، إنما يهتم بالإضافة، وبكشف المجهول، وهو المطلوب بالأساس من العلم؛ لأن العلم الذي لا ينبني عليه عمل وثمار، غير محبذ ولا مستحسن كما يقول العلامة الشاطبي رحمه الله¹.

ومعرفة الحقيقة المجردة بعيدا عما يحيط بها من أمور، من غير أن يعرف أن لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالعمل، أيضا غير مستهجنة؛ لأن ضبط المصطلح عمل تجريدي، يشمل

عرف العلماء العلم بما يلي:

1. معرفة الشيء على ما هو عليه.

2. معرفة الشيء بما هو به.

وهذان التعريفان، كما هو ملاحظ متعلقان، بالجانب الوظيفي للعلم، حيث أن التعريف الأول يفيد أن العلم ينطلق من الواقع، ومن الملاحظ ومن عالم المشاهدة، فيعرفه كما هو موجود، وهذا هو معنى قولهم "معرفة الشيء على ما هو عليه"، أما التعريف الثاني، فلا يتناول الشيء ذاته، وإنما يقف عند معرفة العناصر المكونة له، أي أن

العديد من الوظائف وليس وظيفة واحدة.

وبهذا المعنى يكون التعريفان المذكوران أنفاً قاصرين، ولا يحيطان بالتعريف الدقيق لمصطلح "العلم"؛ لأن العلم ليس معرفة للشيء ذاته، ولا مجرد معرفة أجزائه فحسب، وإنما هو أداة للمعرفة، وغاية أيضاً، باعتباره أساس كل شيء... فهو البداية والغاية والأداة.

علم الأسماء

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا..﴾ [البقرة: 31] وهذا التعليم المشار إليه في الآية "وعلم آدم"، كان قبل التكليف، وقبل الشروع في ممارسة الفعل، وعليه فلا يمكن أن يكون المقصود به معرفة الشيء كما هو؛ لأنه لم يعرف شيئاً بعد، ولا مكونات الشيء، وإنما المقصود، كما يبدو من سياق النص شيء آخر سبق الشيء ومكوناته... وهو مفهوم العلم وحقيقته، وما عداه ربما يطلق عليه اسم العلم مجازاً، أو مكمل له، باعتباره ثماراً له، أو مرحلة من مراحل المتأخرة.

اختلف المفسرون من السلف والخلف، في معنى العلم هنا، انطلاقاً من فهمهم للمقصود بالأسماء الواردة في الآية، الذي جنحوا فيه إلى معنى

التلقين، فقال الضحاك عن ابن عباس: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس، إنسان ودواب وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها، وانطلاقاً من هذا الفهم يكون الله قد علم آدم "أسماء كل شيء، حتى الجنة والمحلب، الفسوة والفسية" كما روي ذلك أيضاً عن ابن عباس، ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم، وقال ابن خويز منداد: وفي هذا دليل على أن اللغة مأخوذة توقيفا، وأن الله تعالى علمها آدم عليه السلام جملة وتفصيلاً².

والظاهر من قولهم هذا أنهم كانوا يتحدثون عن معنى "التلقين"، وليس "التعليم"، وآدم بطبيعة الحال، وهو في تلك المرحلة التأسيسية للخلق، لم يكن مجرد وعاء لكم هائل من الأسماء، وإنما كان "مشروع خلافة ضخم"، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30]، وذلك يقتضي أن يكون مفهوم "الأسماء" المذكور أعظم من مجرد إحصاء عدد من الأسماء لمسميات موجودة، وحتى إذا سلمنا جدلاً أنه علم أسماء بعض المخلوقات التي كانت في عهده، فكيف بأسماء الأشياء التي لم تكن موجودة؟!

وبهذا المعنى يكون المراد من قوله تعالى "علم آدم الأسماء كلها"، أي علمه مفتاح المعرفة؛ لأن الأسماء أسلوب لتمييز المعرفة، والسعي في جوانبها الفسيحة، فهي تميز مفردات المعرفة، وتعطيها تعبيراً يسيراً بسيطاً، يجعلنا نتعرف عليها كلما لفظنا أسماءها، فالشجرة تعبير عن كائن، له من الصفات والأنواع والأعداد والتصرف والوظيفة والقيمة...، ما لا يمكن اعتباره إلا لا نهائي المفردات...، ومع ذلك، فبكل بساطة ويسر نستظهر هذه المفردات دون عناء، فنقول هذه شجرة وهذا غصن وهذه ورقة، ونتحدث عن أشكال الأشجار والأغصان والأوراق. فكل هذه الأسماء هي رموز تمييزية "شيفرات" للأشياء، ومنها تنتقل إلى مشتقات هذه الأشياء ووظائفها في الحياة، فنجد جملة أخرى لا نهاية لها من الأسماء، فهذا شجر ومنه الخشب، ومن الخشب الكراسي والبواخر والموائد والأسرة والعصي... إلخ، كل ذلك أسماء لا نهاية لها...³، ولأهل اللغة كلام طويل عريض، في المعاني والاشتقاقات اللغوية، والعلاقات الوطيدة بين اللفظ والمعنى والوظيفة في عالم اللغات، حيث يكشفون لنا، من وراء كل ذلك عبقرية يمكن أن نطلق عليها مصطلح "علم الأسماء" الذي علمه آدم قبل خلق ذريته، وهي القدرات التي

وهذا يرجح أن علم الأسماء الذي علمه آدم عليه السلام، ليس أسماء الأعلام التي تطلق على الأشياء كما روي عن كثير من أهل التأويل، وإنما هو معاني تلك الأشياء، وعلاقاتها ببعضها البعض، وحتى اللغات التي اختلفوا فيها توقيفية هي أم اصطلاحية؟! لم يختلفوا في وحدة المعاني القائمة بالأذهان، وربما كانت المعاني تلك، هي المقصودة بالأسماء، وإنما اختلفوا في التعبير عنها.

فعندما خلق الله آدم عليه السلام، وأسجد له الملائكة، وأخبرهم بجعله خليفة في الأرض، كان ذلك إنباء بأمر عظيم، وهذا الأمر العظيم، يحمل في طياته أمورا أعظم؛ حيث أن المكانة التي أرادها الله لهذا المخلوق العجيب، والمهمة التي كلف بها، والتي سوف تكون مهمة البشرية على طول تاريخها، لا يمكن أن يكون رأس مالها الأولي مجرد تلقين جملة من الأسماء والمسميات والمعاني المحدودة، وإنما يكون رأسمال أولى بمثابة المادة الخام، القابلة للإضافة والتطوير والعطاء الدائم دون انقطاع.. ورأس المال هذا هو ما أودعه الله في الإنسان من قدرات إبداعية هائلة، وقدرات غير محدودة، قابلة للتفاعل مع الواقع بالتغلب على مصاعبه وتجاوز عقباته، وتفعيل إيجابياته وتتميتها.

البشرية، تستعين على فهمها للوجود، بقراءة سابقة، وهي التدبر والتفكر في ملكوت الله، وهي قراءة جبل عليها الإنسان مذ خلقه الله سبحانه وتعالى، باعتماد الأدوات الأساسية التي يملكها، ولذلك علاقة وطيدة بعلم الأسماء المشار إليه آنفاً.

وأهمية القراءتين، في أنهما ضروريان معاً، لا يستغنى بإحدهما عن الأخرى، فهما: قراءة أصلية، جبل عليها الإنسان، وسبق إليها بالفطرة السليمة، وبها كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ الكون قبل البعثة، حيث كان يخلو بنفسه في غار حراء الليالي ذوات العدد، يتحنث ويتعبد، ويتدبر في ملكوت الله، كما روت ذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في حديث بدء الوحي المعروف.

وقراءة إضافية، اخترعها الإنسان، وتوصل إليها بواسطة القراءة الأولى، من أجل الحفاظ على ما توصل إليه من كشوفات خلال مسيرته الحياتية الطويلة، بعد أن كان يضيع الكثير منها، بسبب عدم التدوين والكتابة، ونقل السابق إلى اللاحق، وهي القراءة التي أمر بها الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية الوحي، لتضاف إلى القراءة الأولى التي كان يمارسها بفطرته السليمة.

أودعها الله في آدم لتمكينه من إقامة الخلافة على الأرض لتوظيف جميع ما يحيط به من مخلوقات، بمنهج علمي ينطلق من النظر في سنن الله في الوجود واستثمار تحولات التاريخ جليلها وحقيقها، استثماراً يمكنه من الإضافة المطردة.

العلم والقراءة

للقراءة معنيان، معنى قراءة الشيء المكتوب، وهو المعنى المتداول، الذي تنصرف إليه الأذهان، عندما يذكر هذا اللفظ، وهو الذي عناه الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قال "ما أنا بقارئ"، في بداية الوحي إليه، عليه الصلاة والسلام، أي إنني لم أتعلم القراءة!!، وهذا المعنى للقراءة لم تعرفه الإنسانية إلا منذ أربعة آلاف سنة فقط، عندما اكتشفت الكتابة، وأضيف لمراتب الوجود الثلاث السابقة⁴، مرتبة جديدة رابعة، وهي الوجود الرسمي، بوضع رسم دال على اللفظ المراد التعبير عنه. فكل شيء يمر حتماً بهذه المراتب [وجود فعلي، صورة ذهنية عنه، لفظ يعبر عنه، رسم يدل على اللفظ المقصود].

أما قبل هذا التاريخ فقد كانت

سبيلا للخير كما يمكن أن يكون طريقا للشر، حسب حامله والمتحلي به، ولكن الطابع الذي يغلب عليه دائما، هو الخير والنفع والإصلاح؛ لأن العلماء بطبيعتهم وطبيعة ما يحملون، لا يميلون في مهامهم ووظيفتهم العلمية إلى خدمة الشر والفساد والإفساد، وإنما ذلك دخیل عليهم بما تفرضه الخيارات الفاسدة، طبائع البشر المنحرفة، والمتتبع للكشوفات العلمية في جميع الميادين الفيزيائية والإنسانية، يلاحظ أن ما انتفعت به البشرية من هذه العلوم المكتشفة، وجلها في عصورنا هذه المتأخرة من إنتاج غير المسلمين، أكثر بكثير من المفاصد التي سلطت عليها، وأن ما ألصق بها من مفاصد لم تكن من خيارات أولئك العلماء، وإنما دخلت عليهم من خارج ميادينهم العلمية.

وعليه فإن من ثمار العلم الأساسية، التي يلاحظها جميع الناس، أن العلم إضافة لما يحققه من نفع للإنسان وتقدم، يفرض على أهله الزهد والقرب من الكمال الإنساني؛ لأن العلم كلما ازداد منه الإنسان، ازداد اكتشافا لمواطن جهله وضعفه، فإن كان من غير المؤمنين ورثه العلم تواضعا وتفانيا في خدمة البشرية، واجتهادا في تطوير ما توصل إليه، وحرصا على تقديم المزيد...، أما إذا كان من

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1-5]

وعلاقة العلم بالقراءة بمعنييها، كعلاقة الروح بالجسد، فلا يمكن أن يكون علما بلا قراءة، ولا تتصور قراءة جادة إلا مفضية إلى علم؛ لأن حقيقة العلم لا تقف عند معرفة الأشياء والكشف عن خباياها، وإنما تتجاوزها إلى النظر في الماضي، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: 20]، والإضافة على الموجود وتطويره،

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: 1]، وإلى تخزين تلك المعلومات وإضافتها لسابقتها، اختزالا للزمان وتحكما فيه، ليتضاعف المنتج والعطاء الفكري والعلمي، فيسرّع وتيرة الكم المعرفي⁵.

ثمار العلم

العلم كغيره من النعم التي أنعم الله بها على عباده، سلاح ذو حدين، يكون

وتعالى، وذلك أرقى ما يمكن ان يبلغه
الإنسان، وأبلغ من جميع صور
الحرص، والتفاني في النفع العام.

المؤمنين فإن ذلك يورثه خشية الله
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ
إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: 28]،
وطلبا للمزيد من القرب منه سبحانه

هوامش

- 1- أنظر: مقدمات الشاطبي في الموافقات
- 2- أنظر: تفسير ابن كثير، والجامع لأحكام
القرآن للقرطبي
- 3 - أنظر: محمود الدمرداش "وعلم آدم
الأسماء كلها" ص 20-27، و "السنة النبوية
نصا ومنهجيا" ص 122-146 لصاحب
المقال.
- 4 - ومراتب الوجود هذه هي "وجود
الشيء في الواقع ويسمى الوجود الخارجي،
والوجود الذهني، وهي الصور الذهنية
للأشياء، والوجود اللفظي، بوضع عبارة
تدل على الشيء الموجود في الواقع أو في
الذهن.
- 5 - أنظر: جودت سعيد "اقرأ وربك
الأكرم"